الفنّ والصّليب

بقلم الدكتور نديم نعيمه

لست اعلم ايهم من اجدادنا الطيبين كان ذاك الذي شاء ان يضع تعريفا للانسان فقال : انه حيوان ناطق . والذي اعلمه حقا هو اننا اذا اردنـا ان نعرّف شيئا من الاشياء عمدنا الى تفحصه فذكرنا تلك الخصائص التي هي فيه والتي في عرفنا لا يشاركه فيهـا اي مخلوق سواه . فالقلم قلم لانه يؤدي وظيفة ليست مبدئيا لغيره من الادوات. فهو قلم بفضلها ، وهي الكتابة . والكمنجة كمنجة لان لهـا بطبيعـة تركيبها وعملهـا ما ليس للارغن والعود والقيثارة . والبنفسجـة بنفسجة بفضل ما تتميز به عـن الورد والفلة والاقحوانة . والنافـذة نافذة لان لهـا مـن عملها ما ليس للباب والخزانة . وكثيرا ما اخطـأ بعضهم متعمدا فشاء أن يتخذ من النافذة بابا الى خزانـة في بيت ما فكـان ان دخل السجن واخطأ البيت والخزانة .

لله كم كان طيبا وبسيطا وساذجا ذاك الذي يفحص الانسان مفتشا عـن شيء ينفرد به دون سائر الحيوانات فكـان ان وقع اختياره على النطق . اليس انـه في اختياره ذاك قد حكم على باقـي الحيوانات بالبكـم وعلى سائـر مخلوقات الله مـا خلا الانسان بانها كافة عجماء؟

الا ليت لذاك الذي أطلق هذا التعريف على الانسان بقصد تمييزه وتشريفه ان يعلم كم كان حكمه مخطئا ومجحفا ومزريـا لا بحـــق الحيوانات التي حكم عليهـا بالعجمة بل بحقه وحق الناس .

ليس يحقر حجلا في صنين يسيل قلبه لغطا وكرّا ونجوى لخليلة اهاج له نيسان في مهجتها مثل ما اهاج لهـا في مهجته ان نعتبـره طائرا أعجم . ويحقر الانسان ايمـا تحقير ان يسمع حجل صنيـن في نجـواه ويصرّ مـع ذلك على ان يعتبره أعجم ويعتبر نفسه متكلما دونـه .

ليس يضير صرّار الليـل في غرّة آب اذ يطلقها في هــــدأة المساء عبر الحقول والبيادر شجية موصولة ساهمة مسبحة ان نحكـم عليه بالبكم . ويشين احدهم في حضرة صرّار الليـل ان تبلـغ بـه العجمة الغبية حد الاصرار على الكلام والثرثرة .

لا ليس يجرح كبرياء شلال قاديشا وارز الرب وشماريخ صنين، كبرياء الحقول والمروج والهواء والبحر والسماء والشموس والاقمـار وجميع مـا ينتشر في هـذا الوجود اللامتناهي ان يقال عنهـا انهـا بكمـاء خرساء لا تنطق . ويجرح كبرياء الحقيقة بمـا لا يقاس ان يعتبر انسان كلامها المتواصل العميق الهادىء الوحي بكمـا وعجمة فيمـا يحسب الكثير الكثير ممـا تغص به صحفنـا واذاعاتنا وبيوتنا وانديتنا من الثرثرة الفارغـة الجوفاء كلامـا ونطقـا .

لا ليس في الكون ما هو ناطق ومـا هو ابكم . وفي الكون مـن يفهمون اذا ما خوطبوا ومن لا يفهمون . فالوجود نطق دائم . وكـل موجود ابدا متكلم . اما الابكم الوحيد الاخرس الذي لا يقول شيئـا ولا ينبىء بشيء فهـو الذي ليس في حقيقته شيئا ، انه العدم . ان يكـون شيء مـا موجودا يعني ان يكـون على اتصال مستمر بكل مـا حوله ومن حوله ،ان يكـون مخاطِبا ومخاطَبا ابدا ، حتى اذا انقطـع هذا الحوار بينه وبين الاشياء انقطع وجوده وغاب لتوه فـي لجـة العدم . ها ان الوردة مثلا ، يخاطبها النور فترد عليه الخطاب الوانا ولا ابهج ، ويخاطبها النسيم فتملأ جوانحه عبقا وعطرا ، ويكلمها الماء والدفء والتراب فتجيبهـا نمـوا وتفتحا ونضرة . ويحاورها المكـان فتمتد فيه جذورا وساقا وفروعا ، ويخاطبها الزمـان فترد عليه بذرة في الشتاء فنبتة في الربيع ، فوردة متكاملـة صيفـا فعودا على بـدء خريفا . وهل كـان لنـا ان نتصور لوردة او لاي شيء اخـر في هذا العالم عالمنـا وجودا على الاطلاق لو ان الحوار انقطع فجـأة وانبتت الصلـة بينه وبين الماء والهواء والنور والتراب وغيرها وجود لولا انها هي ايضا بدورهـا مرتبطـة ترابط حوار مستمر بغيرها ، وهـكـذا حتى اقاصي اللانهاية في وجود تتخطى ابعاده حد التصور ؟ اليس ان كل كائـن على الاطلاق ، بمـا فيه الانسان ، كمـا الوردة ، هو جهاز اذاعي حي ؟ انـه محطة اذاعية للتلقي والبث في آن معـا . يتضافـر الوجود اللامتناهي جميعـا من حول الوردة ليمدها بالزاد فتشرّع نوافذها له وتدخله وتحوله الى ذاتها لتعود فتذيعه على الوجود مـن جديد ، وبلغتها الخاصة ، تفتحا ونموا ولونا وعبقا . وهكذا تغـدو الوردة في حقيقتها ، كمـا يغدو كل كائـن حي على الاطلاق ، تعبيرا عـن الوجود ككل . انهـا الكائـن المحدود الذي يحاول ضمـن نطاقه ان يكـون تعبيرا عـن اللامحدود . هي الوجود اللامتناهي وقد تحـول عبرها الى كلام محدد . من هنا لا يبدو صدفـة ولا عبثا ان بعضهم ممن وعى كونه تجسيدا للقوة اللامتناهيـة في الوجود قد قيل فيه انـه « الكلمـة » .

لا . ليس في النطق ما يشرّف الانسان ويميزه عن باقي الكائنات، بل ان كل مـا في الوجود متكلم ناطق . امـا الذي يشرّف الانسان حقا ويميزه فهو ليس انـه حيوان ناطق ، بل انه الوحيد بين الحيوانـات وسائر مخلوقات الله الذي يعي كم هو النطق الحقيقي الكامـل متعـذر بـل ومستحيـل .

يحتشد هذا الوجود اللامتناهي في حجل صنين فلا يحسن ذلـك

الحجل التعبير عنه الا بلغة محدودة تكاد تكون واحدة لا تتبدل . فلا انا رأيت حجلا ولا احد أخبرني عن حجل وعى يوما ان لغة يعبر بها عن وجوده هي اضيق من ان تتسع للتعبير الكامل عن ذلك الوجود. وهكذا راح يبدل في وسائل تعبيره فكان ان ظهر الحجل الشاعر والحجل الموسيقي ، الحجل العالم والحجل المتصوف . الحجل المتقشف الزاهد والحجل المتهالك على اللذة والتهتك . الحجل الرافض المتعبد للرفض والحجل المتزمت الكاره للرفض والرافضين . الحجل المتفائل المقبل على الحياة والحجل المتشائم المنحر هربا منها . والذي يقال في الحجل ، يقال ايضا في صرّار الليل والوردة وسائر الكائنات من جماد ونبات وحيوان وشموس واقمار وغيرها وغيرها مما نعرف من اشياء هذا الكون الذي بلا حدود . لا . ليس بين مخلوقات الله قاطبة من يعي محنة النطق الكامل واستحالته غير الانسان . فهو ما حاول يوما ان يعبر تعبيرا حقيقيا عن شيء مما طواه الوجود في نفسه الا وهاله كم هي تلك النفس وذلك الوجود اوسع من ان يحتويهما تعبير . وهكذا عمد الى ان يعيد الكرّة بكلام اخر ويحتال على نفسه وموضوعه من جديد بالف لغة ولغة .

لست ادري كم كانت بهجة الذين ابتكروا الحرف في انهم قد وصلوا اخيرا في اعتقادهم الى الوسيلة المثلى للتعبير . وادري جيدا كم كانت حتى الساعة محنة الانسان مع الحرف . كما ادري ان احدا من اهل الحرف عبر التاريخ لم يمت الا « وفي نفسه شيء من حتى » . وهل عرف التاريخ متكلما واحدا أو كاتبا واحدا مات وهو مطمئن الى انه قال كل ما اراد ان يقوله وانه عبّر عن كل ما كان بوده ان يعبر عنه ، وانه لو بعث حيا من جديد للبث حياته الجديدة كلها صامتا ؟ لا . لا اظن التاريخ قد عرف يوما مثل ذلك الانسان او انه سيعرف . وعرف التاريخ الحرف يضيق باصحابه فيحولونه الى لغة ، وتضيق بهم اللغة الواحدة فيحولونها الى لغات تكاد اليوم لا تحصى . وتضيق اللغات نثرا على تعدادها بالانسان فيشتق منها الشعر . وفي الشعر والنثر مذاهب لا حصر لها ولا حد . وفي المذاهب فنون بينها القصة والاقصوصة والمسرحية والملحمة والاسطورة وغيرها وغيرها مما قد لا يتسع لها تعداد ، وفي كل منها اتجاهات والوان . ويخون الحرف ومشتقاته الانسان في التعبير الكامل عن نفسه فيسعفه بالنغم والموسيقى ، ويتلعثم النغم ومشتقاته بين يديه وفي حلقه فيرفده بالفرشاة والريشة ، والفرشاة والريشة بالازميل والحجر ، والازميل والحجر بالرقص والايقاع . وتتلعثم هذه جميعا وتتعثر لدى الانسان فلا يزيده ذلك الا اصرارا . فكانه الطفل الذي لا يزيده التلعثم واللثغ والتأتأة الا اصرارا على انه لا محالة متقن يوما لغة امه .

اما لغة تلك الام ، ام الانسان وام كل كائن على الاطلاق فهي لغة هذا الوجود اللامتناهي الذي بدونه ما كان لشيء ابدا ان يكون. وان محنة الانسان الناطق الذي يصر على ان تكون له لغة امه اللامتناهية هي في ان يكون لا متناهيا مثلها . ان ينطق وهو ابن ايام وسنين معدودة بلسان كل الايام والسنين ، وان يعبر وهو رهين امكنة وابعاد بعينها عن حقيقة كل الابعاد والامكنة . محنته في انه يريد لذاته المحدودة ان تتسع تعبيرا لذات الكون التي لا تحد . فاذا بذاته تتمزق وتتقطع لشدة ما يمطها وتبقى ذات الكون ابدا خارجا. من هنا كانت ارقى مظاهر النطق عند الانسان ، وهي فنونه التعبيرية الكبرى ، ابدا حزينة . فابلغ ما يجده الانسان من وصف للموسيقى اذا هي بلغت من تعبيرها الذروة ، انها شجية . كما انه ليس عبثا ان تكون قمة الفنون المسرحية هي المأساة . بل ان ابعد ما يقال في اي فن من الفنون حين يمعن في النفس البشرية شدا وتوسيعا حتى يبلغ بها حد التقطع والتمزق « انه اعمق من الدموع » حتى الهزلي الكاريكاتوري المضحك بين فنوننا ان هو بلغ ذروة اكتماله التعبيري كان اقصى ما يقال فيه من مديح « انه بلغ حدا ان يستل الضحك من خلال الدموع » .

اجل . حزينة في جوهرها هي جميع فنوننا التعبيرية حين تبلغ الذروة . وحزنها هو حزن النفس الواقفة وجها لوجه امام محنة النطق والتعبير ، النفس التي تريد ان تنطق بالكلمة التي هي اوسع من حلقها ، فيتشقق الحلق ويتمزق وتصفق الكلمة وتطير فلا تقتنص .

وماذا عساها ان تكون كلمة الموسيقي مثلا ؟ اليس انه يحاول ان ينطق باصوات هذا الكون اللامتناهية كما تحتشد في ذاته وتصطخب من حوله فيلجأ الى آلاته وايقاعاته وانغامه ؟ وأين آلاته من آلات هذا الكون ، وايقاعاته وانغامه من ايقاعات هذا الوجود التي لا تحد وانغامه التي لا تحصى ؟ بل اين سمفونيته حتى في ذروة اكتمالها من سمفونية هذا الوجود باوركسترا اصواته العجيبة ، المسموعة منها وتلك التي هي اعلى من ان يتناولها السمع او ادنى من ان تسجلها اذن او اي جهاز لاقط مهما بلغت به الدقة والحساسية . اين سمفونيته من سمفونية الماء في بحارها والريح في فلواتها والارض باصوات ما فيها وما عليها وما بها ، والشموس والاقمار في دورانها وتجاذبها وتناغمها. بل أين ايقاعه من ايقاع هذا الوجود اللامنتهي الذي يتناهى الى حد ان يبلغ الذرة النوتة او النقطة ، وايقاع الذرة او النوتة او النقطة التي تتسع تجمعا وتتاليا وتواصلا وتناغما حتى تؤلف اللانهايات؟

والذي يقال في الموسيقي يصح ايضا في الشاعر والرسام والراقص والمثّال وغيرهم من اصحاب فنون التعبير الانسانية الكبرى .

ان كلمة يحاول ان ينطق بها الفنان الاصيل هي ابدا اوسع من حلقه بما لا يقاس . وهي لذلك ابدا صليبه . انها دوما طريقه الى التقطع والتمزق : تمزق الانسان المحدود يحاول ان يجعل من نفسه ومن نطقه عبّارة تؤدي به وبالناس الى اللامحدود ، فينتهي هكذا ابدا الى الجلجثة ، الى الصليب . ينقطع الوتر المشدود فيه بين الآني والمطلق ويفلت النغم . ولولا ان الجلجثة في التاريخ مقترنة ابدا بفكرة الفداء لتحتّم على كل انسان عاقل ان يحكم على الفن بانه يحاول المستحيل وعلى جميع اصحاب الفنون التعبيرية في تاريخ البشرية بالعبثية والجنون .

اكان مجنونا ذاك الذي القى نفسه على الصليب ؟ ام انه القاها ، صلبها ، لانه شاء ان يصل ويوصل الناس عبر صليبه الى ذلك الجانب الذي لا يطوله صليب في نفسه ونفوسهم .

اهو جنون في الفنان ان يحاول النطق بكلمة تقطعه وتمزّقه وتلغيه لانها اوسع من حلقه ام انه ينطق بما ينطق به لانه يريد ان يبلغ بنفسه وبالناس عبر كلامه الى ذلك الجانب من وجه الكون الذي لا يحيط به ولا يستوعبه نطق ؟ فكان النطق ما كان يوما الا ليلغي نفسه ؟ الا ليصلب من اجل بلوغ ما هو عبر صليبه .

اليس ان الحركة ، ايّ حركة ، هي وسيلة الى غاية ما ، حتى

ثلاث ترانيم على عتبات الليل

١ ــ الاولى ....

على بابك
تكوّم هيكلي المهدود يلعق جرحه الفائر
ويلعن حظه العاثر
ويرسل من قرارة حزنه الوردي لحنا حائراً حائر
يئن ّ على دروب الريح ،
يمضغ نغمة الالم
ويبحث عن صدى قد ضاع في دوامة العدم
يلوب .. يلوب ، في أذن السما وقر ،
وفي عينيه ألف شكاه
والف صلاه
ودمعات كما الاحجار سدت كوة النور
وشدته الى أعماق ديجور
هو البشرى لاحبابك
بمقدم غيثك الضاحك ....
على بابك
سلخت سنين من عمري أصف حروف مرثاتي
وارقب موتي الآتي
فتلك شروطك اللاتي أمرت بها كما قد قيل
وتلك طوابع التسجيل في ملكوتك العالي ...
على بابك
قبعت بقمقمي الممقوت ألفا من زمان القهر
وألفا من زمان الذل
وألفا من زمان الصبر
ولم أعلم بأن الدود حطم كبر منسأتك
وانك آيل ٌ للقبر
ولكن هممهات الجوع دلتني ، فخضت الفجر
بزورق حقدي المصنوع من بابك ...

٢ ــ الثانيــة ...

أزيحوا المخلب النهاش عن عينيّ
أنا لم التفت للخلف ،
لم أبك ،
ولم آسف
ولم أغرف
من الآلام آهات خريفيه
ولكني ، ومنذ تبلج الموت
وحطم صمته الصمت
أفتش في بحار العشق عن حورية شقراء
نمتها الشمس خلف مرابع الجن
وجلتها لمن لا يرهب الامواج والاثباج
فكفوا النهش ... ذاك أنا
قهرت الريح والاعصار والدنيا ، وطرت لها
بقلبي شب حزن نبي
وعزم الله في عينيّ ....

٣ ــ الثالثــة ....

نعم عدت
قحمت الصبح في جيش من الاوهام
وبسم الحب ، بسم الله حاربت
وعانقت المدى المسحور خلف حدائق الاحلام
قتلت ، سبيت ، أحرقت
« أنا ابن جلا
متى أضع العمامة يزهق زيفكم موت »
نعم عدت
حرقت الزورق المصنوع من بابك
بكيت رفاتك البالي
رثيتك أنهرا من شعر
ونمت الدهر ،
مهموما على بابك ....

عمـان ــ الاردن

ابراهيم خليل العجلوني

اذا بلغت تلك الغايـة انفت نفسها وسكنت ؟ اليس ان النطق وسيلـة الى الفهـم حتى اذا حصل الفهم الغى الكلام نفسه وتحـول الــى سكـــوت ؟

ان نطقا ــ اي نطق ــ لا يهدف واعيا الى الغاء ذاته ، الى بلـوغ الفهم ــ فهم الكـون الاعظم الذي لا يحيط به كلام ، هو العجمة بعينها. ان نطقـا لا يهدف الى بلوغ السكوت الكلي ازاء ما هـو اشمل واوسع من ان يحيط به تعبير هـو البكم بعينه .

هنا بالضبط محك الفرق بين الكلام والثرثـرة ، بيـن الفـن التعبيري الحقيقي الذي هو ابدا صليب وبين ادعياء الفن الذين ابدا يصلبونه . بين الانسان الحق الذي يتميز عن الحيوان ليس في انـه حيوان ناطق بـل في انـه يفهم ويعي النطق وسيلة الى السكوت الاعظم، وبيـن سائر البشر والحيوانات التي هي عجمـاء لانهـا ابدا متكلمة .

نديم نعيمه